القومية العربية فى فكر ..

محمد عيسى



فى البدء كان الخيال ! .. بيد انه لم يكن خيالا شاحبا سقيما يصدر عن تهويمات ذاتية محضة ، وانما كان خيالا حيا وخلاقا يحركه فهم عميق للواقع الراهن .

مثل هذا الخيال الخلاق يعنى ، بالضرورة ، رفض الواقع الراهن ، والثورة عليه ، وتقديم مشروع آخر له .

ومن هذا الفهم لمدلول الخيال الخلاق يبدأ المفكر العربى ساطع الحصرى مسيرته الفكرية . فهو يرى « أن كل حركة تقدمية انما تبدأ بالخروج على الأمر الواقع ، وكل نهضة قومية انما تنشأ من العصيان على الوضع الراهن » . وما من نهضة قامت الا وكانت فى البدء « مشروعا تتخيله بعض الأذهان ، أو مثلا أعلى تصبو الى تحقيقه بعض النفوس » .

ومن ثم فان ساطع الحصرى يعتقد أن فكرة الوحدة العربية ، الآن ، هى « من أحسن الأمثلة على هذا النوع من الخيال » .

من هذا المنطلق الفكرى المحدد يبدأ ساطع الحصرى ثورته على وضع عربى راهن « محدد » هو : وضع التجزئة التى فرضتها السياسات الأمبريالية على الأمة العربية .

والواقع أن « التجزئة » تمثل عند الحصرى أعمق المؤثرات الوجودية التى أيقظت فكره ، وبلورت أبعاد القضية التى يلتزم بها ، ويدعو اليها طوال نصف قرن ، وهى : **قضية القومية العربية** .

وهكذا يكتشف ساطع الحصرى هويته الفكرية من خلال معاناة مأساة الضياع القومى . ومن ثم فقد عاش مفكرنا العربى الحقيقة القومية وانفعل بها قبل أن يكتب عنها .

ساطع الحصري

الحقيقة القومية

بيد أن ساطع الحصرى لم يكتشف « **الحقيقة القومية** » فوق الأرض العربية ، وانما اكتشفها فى مدن البلقان .. فكيف كان ذلك ؟ .. حتى يتسنى لنا أن ندرك ذلك علينا أن نطرح سؤالا أساسيا :

– كيف تفتح الوجدان القومى عند **ساطع الحصرى** ؟ .

ولد « **ساطع** » فى مدينــة صنعاء باليمن عام ١٨٨٠ من أب وأم سوريين من مدينة حلب . وكان أبوه يعمل قاضيا شرعيا فى الشام ثم نقل الى صنعاء التى كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية .

وعندما بلغ ساطع الحصرى العشرين من عمره اشتغل بالتدريس عام ١٩٠٠ فى مدن البلقـــان ، وكانت تتبع الامبراطورية العثمانية فى ذلك الحين . وقد مكث الحصرى فى هذه البلاد ثمانى سنوات كان لها أثر فكرى خطير فى حياته ، فقد أدرك لأول مرة معنى الحقيقة القومية :

« كانت فترة عملى فى هذه المدن البلقانية هى التى فتحت عينى ، لأول مرة ، على **الحقيقة القومية فى أوربا** . كنا نحن العرب تائهين فى عبـاءة الامبراطورية التركية التى تحكمنا باسم الاسلام . وعندما ذهبت الى البلقان كنت اظن أن البلقانيين انما يحـاربون الأتراك فقــط لأنهم مستعمرون ولأنهم من دين غير دينهم ، وهذا ما يظنه أكثر المؤرخين عندنا مع الأسف ! ولكنى وجدت هناك حقيقة أخرى .. وجدت الى جانب الصراع ضد الاستعمار التركى صراعا آخر بين البلقانيين أنفسهم رغم اتحادهم فى الدين والظروف ، وكان صراعا قوميا » .

ولقد أثار هذا الصراع القومى انتباه ساطع الحصرى الى الحقيقة الجوهرية التى شكلت محور أفكاره وهى : الحقيقة القومية .

وفضلا عن هذا ، فقد استطاع الحصرى أن يستخلص من الصراع القومى بين دول البلقـــان التى كان يظلها « دين واحد ، ومذهب واحد » موقفا فكريا ونضاليا هاما : فقد أدرك أن هناك افتراقا ما بين الدين والقومية وعندئذ امتشق المفكر العربى حسام القومية العربية ليمزق به « عباءة الامبراطورية العثمانية » .. وذلك عندما أدرك :

– « ان الأتراك ليس من حقهم أن يستعمروا العرب ويسحقوا قوميتهم بدعوى أنهم – كاغلبيـــة العرب – مسلمون » .

وبعد هذا الاكتشاف الفكرى الخطير ، يترك الحصرى مدن البلقـان عام ١٩٠٨ ليذهب الى مدينـة استنبول عاصمة الدولة العثمانية . وهناك يبدأ صفحة جديدة فى حياته : فمن ناحية كان يجاهد من أجل اسقاط الحكم الأوتوقراطى الرجعى **للسطان عبد الحميد** ، ومن ناحية أخرى ، كان يرسى دعائم نهضة تعليمية جديدة فى تركيا ، حتى أن الأتراك يؤرخون بدء ادخال التعليم والتربيـــة الحديثة بعهد **ساطع الحصرى** .

ولـكن الأحـداث تندفع بسرعة : فتنفجر الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وتنهار الامبراطورية العثمانية ، وتبدأ الثورة العربية عام ١٩١٦ . وعندئذ يتمكن الأمير **فيصل بن الحسين** من اعلان نفســه ملكا على سوريا . وهى آنذاك .. سوريا ، ولبنان ، وفلسطين ، والأردن . وتتشكل الحكومة العربية الأولى التى يحتل ساطع الحصرى فيها مكانة وزيرا للمعارف . وكانت بريطانيا تؤيد ، فى العلن ، هذه الحكومة اعترافا بجميل فيصل وأبيه الملك حسين لوقوفهما مع الحلفاء ابان الحرب ، ولكنها كانت **قد اتفقت مع فرنسا** ، فى الخفاء على أن تترك لها سوريا ولبنـــان فى مقابل أن تترك فرنسا لانجلترا فلسطين والعراق ..

وبالفعل زحف جيش فرنسى بقيادة **الجنرال جورو** على سوريا ، ووجه انذارا الى الأمير فيصل . ولكن الحكومة صممت على مقاومة العـدوان الفرنسى .. وخرج القائد العربى العظيم « **يوسف العظمة** » على رأس جيش عربى ليلتحم مع الغزاة فى معركة « ميسلون » الشهيرة .

ولكن يوسف العظمة يستشهد ، وتسقط سوريا فى قبضة الاحتلال الفرنسى . ويخرج الحصرى طريدا مع الملك فيصل الى حيفا .. ثم الى أوربا للمفاوضة من أجل تحقيق وحدة العرب واستقلالهم .

وتمر سنتان ، ويعود ساطع الحصرى الى العراق عندما يوافق الانجليز على اعطاء عرش العراق الى الملك فيصل بن الحسين تعويضا له عن عرش سوريا . وعندئذ يعمل الحصرى وزيرا للتعليم فى حكومة العراق ، ويمكث به عشرين عاما يعمل خلالها فى دأب واخلاص فى ميدان التعليم والدعوة الى القومية العربية .. الى أن كان يوم عاصف من أيام شهر أبريل عام ١٩٤١ عندما اندلعت

• « إن الطبيعة قد زودت مصر بكل المزايا التي تحتم عليها أن تقوم

ثورة **رشيد عالي الكيلاني** في العراق . عندئذ هبت القوات البريطانية واغتالت الثورة في مهدها . وتشكلت حكومة جديدة موالية لبريطانيا ، فصلت ساطع الحصري من العمل ، وسحبت منه الجنسية العراقية ، وطردته من البلاد .. لأنه مسئول عن « **عقيدة الثورة** » .

وعندما تنتهي الحرب العالمية الثانية تستدعي دمشق ساطع الحصري ، بعد استقلال سوريا عام ١٩٤٥ ، ليضع اسس التعليم والتربية القومية .

وأخيرا .. يأتي الحصري الى مصر التي قال عنها عام ١٩٣٦ : « ان الطبيعة زودتها بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة في انهاض القوميـــــة العربية » .. أتى ليؤسس معهد الدراسات العربية العليا .. وحيث يطيب له المقام في القاهرة حتى الآن .

هكذا اكتشف ساطع الحصري الحقيقة القومية وعايشها . ولئن كانت حياته خصبة وعميقة ، الا أن أفكاره القومية هي التي سلطت الأضواء عليه .. وأثارت الجدل حوله .

ومن ثم يكون السؤال الآن :

ـ ما هي أفكار ساطع الحصري ؟ .

القومية والتاريخ

على الرغم من أن ساطع الحصري بدأ حياته العملية منذ عام ١٩٠٠ ، وانه اختار لنفسه ، كما قال أحد الكتاب ، ميدان « **العقل** » في الثورات العربية ابتداء من الثورة العربية الأولى حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الا أنه لم ينخرط جديا في الكتابة عن القومية والفكر القومي الا بعد مضي اربعة واربعين عاما من معايشة الاحداث وتقليب وجهات النظر ، **أي عام ١٩٤٤ عندما أصدر كتابه القومي الأول « آراء وأحاديث في الوطنية والقومية »** . وكان هذا الكتاب يضم محاضرتين هامتين :

أولاهما : من « **الوطنية والقومية** » .. وقد ألقاها الحصري في دار المعلمين العالية ببغداد عام ١٩٢٣ . وهي تاريخيا أول ما كتب ساطع الحصري عن القومية . وتبلغ حوالي تسع صفحات .

ثانيتهما : عن «**عوامل القومية**» .. وقد ألقاها بنادي المعلمين ببغداد عام ١٩٢٨ ، وتقع في حوالي تسع عشرة صفحة .

وتنبع أهمية هاتين المحاضرتين من أنهما تنطويان على المعالم الأساسية لنظرية الانسان القومي ، والنظرية القومية في منظور ساطع الحصري .

وهنا يمكن القول بأن ساطع الحصري صاحب نظرية عامة في القومية . وأن القومية العربية عنده هي حالة خاصة ضمن النظرية العامة . وترتكز النظرية العامة في القومية أساسا على معطيات تاريخ القوميات الأوربية . ومن ثم يصبح منطقيا أن نبدأ بوجهة نظر المفكر العربي في تاريخ القوميات الأوربية :

يرى الحصري أن التاريخ الأوربي ينقسم الى عصرين متميزين :

● عصر ما قبل القومية ، وهو عصر الممالك ، ويقع تاريخيا قبل أوائل القرن التاسع عشر . وكانت الفكرة التي تحكم هذا العصر هي اعتقاد الناس في « **نظرية حق الملوك الالهي** » . ولذا كان الخلط الشديد بين مفاهيم الوطن والدولة والملك . اذ كان الاوربيون يربطون مفهوم الوطن بمفهوم الدولة ربطا وثيقا . وفضلا عن ذلك « كانوا يخلطون بين الدولة والملك أيضا » . ومن هنـــا كان مفهوم الوطنية في أوربا يعني الارتباط بالملك والمملكة .

● **عصر القوميات ، وقد بدأ هذا العصر تاريخيا في أوائل القرن التاسع عشر . وكانت مقدماته الفكرية هي تزعزع الاعتقـــاد في نظرية حق الملوك الالهي ، وانتشار مبدأ « الشعب مصـــدر السلطات »** . عندئذ توافرت الظروف التي انبثقت منها « **الفكرة القومية** » التي أحدثت ثورة كبرى في الخريطة السياسية لأوربا .

وهكذا شهد القرن التاسع عشر مولد « **الدولة القومية** » . ومن ثم أطلق المؤرخون على هذا العصر : عصر القوميات . ولم يكن معنى ذلك أن القوميات تكونت خلال هذا العصر ، وانما أن النزعات القومية تعاظم نموها في هذا العصر ، وأخذت تتغلب ، كما يرى الحصري ، على سائر العوامل الاخرى في تكوين الدول وتحديد دورها .

بيـــد أن القرن التاسع عشر في أوربا لم يكن عصر القوميات فحسب ، وانما كان عصر الثورة الصناعية ، وعصر التوسع الامبريالي الأوربي كذلك .

ومن ثم فعندما يتأمل ساطع الحصري هـــذه المعالم التي تكون القرن التاسع عشر .. يذهب الى القول بأن الاستعمار الأوربي كان نتيجة انتشار مبدأ القوميات ، وقيام الثورة الصناعية . ومن هنـــا ، فاذا كان القرن التاسع عشر هو عصر انتصار القوميات في أوربا ، فانه أيضـا « عصر استفحال الاستعمار في البلاد الأفريقية والاسيوية » .

ولكن .. حذار أن يفهم من هذا الكلام وجود أي علاقة عضوية بين القومية الأوربية والاستعمار ! .. اذ أنه تبعا لمنظور الحصري للتاريخ الأوربي لا يوجد أي ارتباط بين القومية والاستعمار ، أو بين القوميـــة والرأسمالية . ان المسألة عنده لا تعدو كونها مجرد « تزامن » . أي حوادث تصادف وقوعها في زمن واحد . وأن لكل حادثة أو ظاهرة استقلالها الذاتي . ولذا ينبغي على المرء الا يشتق من هذا « التزامن » أية دلالة سواء

كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ويؤكد هـذا المعنى فى عبارة حادة حين يقول :

– « لا أسلم بأن القوميات التى ظهرت فى أوربا فى القرن التاسع عشر كانت استعلائية واستيلائية ، ولا أرى من الحق والصواب أن نربط خفايا الاستعمار والاستعباد بظهور القوميات المذكورة » .

وهنا يمكن القول بأن ساطع الحصرى يرى أن مبدأ القوميات هو بمثابة قاطرة التاريخ الأوربى فى القرن التاسع عشر . وهذا صحيح « من حيث الشكل » . ولكن الحصرى لم يهتم بالبحث عن « ماهية » الوقود أو الطاقة المحركة لقاطرة التاريخ الأوربى . لقد كان هذا الوقود هو الصراع بين البرجوازية والاقطاع .

بيد أن الحصرى عندما أسقط من رؤياه التاريخية هذا الصراع وقف عند حدود « شكل » التاريخ الأوربى ولم ينفذ الى مضمونه . ومن ثم فان الأحداث فى مسرح القرن التاسع عشر عند الحصرى تفتقر الى «عنصر الصراع» – الدراما – وهـذا هو سر تسطحها وشكليتها ، ومن هذا فالتاريخ عنده وقائع وأحداث تتراكم ، وظواهر ذاتية منفصلة لا يربطها ببعضها أية علاقات موضوعية .

ها نحن نوشك أن نترك قاطرة التاريخ الأوربى . ولكن علينا أن نقف قليلا عند ألمانيا ..

– لماذا ؟ .

– لأنه اذا كانت حياة ساطع الحصرى ، كمفكر قومى ، قد تأثرت بمشاهداته وخبراته الحية فى مدن البلقان ، حيث تفتح وجدانه على آفاق الحقيقة القومية ، كما رأينا فيما سلف ، فان الفكر الألمانى القومى الذى يمثله المفكر **هردر** ، والشاعر **موريس آرنت** ، والمفكر **ماكس نورداو** عامة ، والأفكار التى بشر بهما الفيلسوف الألمانى **فيختته** فى خطبه المشهورة التىوجهها الى الأمة الألمانية فىشتاء عامى ١٨٠٧ – ١٨٠٨ خاصة .. كان لها أثر ملموس فى تفكير ساطع الحصرى .

الا أن المفكر العربى ، وهذه نقطة هامة ، لم ينفعل بالفكر الألمانى القومى انفعالا سلبيا ، وانما انفعل به على نحو ايجابى . وذلك عندما « نقاه » من العرقية والشوفينية (التعصبية) ، ولم يتأثر منه الا بفكرة « تعادل اللغة والأمة » .. واعتماد اللغة أساسا للقومية ، أو كما قال **فيختته** :

– « اللغة والأمة ، أمران متلازمان ومتعادلان » .

ولذا ، فاذا كان يصح القول بأن ساطع الحصرى اعتمد النظرية القومية الألمانية مصدرا لأفكاره ، الا انه لا يصح الانسياق مع القائلين بأن أفكار الحصرى هى تطبيق عربى للنظرية الألمانية القومية .

– لماذا ؟ .

– لأن الحصرى مزق بوعى وايجابية النظرية العرقية التى تعد ركيزة أساسية فى الفكر الألمانى القومى . ذلك أن النظرية القومية التى بشر بها **فيختته** فيلسوف القومية الألمانية ورائدها تفيض بالتعصب ، وتنضحببثور العرقية .. تلك البثور التى امتلأت « **صديدا نازيا** » ابان حكم هتلر فى القرن العشرين . ولذا لم يكن غريبا أن يقول كاتب فرنسى بحق « أن النازية نبات سام جذوره ممتدة الى فيختته » .

أما ساطع الحصرى فهو مفكر قومى لا عرقى . ان الحركة الأولى فى سمفونيته القومية هى لحن المساواة أو عدم **التمييز العرقى أو العنصرى بين البشر . انه يشجب ، بقوة ، نظرية الأصل والعرق ، مستندا الى ما وصلت اليه أبحاث علم الأنثروبولوجى من نتائج علمية حاسمة تبرهن على فساد نظرية الأصول السلالية .**

وهنا يمكن القول ، بلا تحفظ ، بأن النظرية القومية عند ساطع الحصرى هى « أنقى » و « أطهر » نظرية قومية فى تاريخ الفكر الانسانى .

النظرية القومية

يؤمن ساطع الحصرى بأن « الانسان حيوان ناطق » .. وهو ينطلق من هذا الايمان لينسج البناء الفكرى لنظريته فى الانسان القومى والأمة . ويمكن اختزال نظرية الحصرى فى الانسان القومى فى هذه الصيغة :

« بما أن الانسان حيوان ناطق بلغات مختلفة » .

وبما أن اللغة أساس القوميات .

اذن .. الانسان حيوان قومى .

وينطلق الحصرى من هذه النتيجة : « الانسان حيوان قومى » ليصوغ نظريته العامة فى الأمة والقومية . تلك النظرية التى تتعادل فيها الأمة مع اللغة .

وحتى يتسنى لنا أن نقف على جوهر هذه النظرية علينا أن نطرح هذا السؤال :

– ما هى العناصر التى تتكون منهاالقومية وتتألف منها الأمة عند ساطع الحصرى ؟ .

يبدأ الحصرى الاجابة على هذا السؤال الجوهرى بمناقشة العوامل التى تتألف منها الأمة والقومية فيتحدث عن « **وحدة الأصل** » .. التى تنشأ من « ظن الناس عادة أن كل أمة من الأمم تنحدر من أصل واحد : ويزعمون أن جميع أفراد الأمة الواحدة يكونون بمثابة الأشقاء الذين ينحدرون من صلب أب واحد » .

وهنا نقف على أخطر وأروع ما فى فكر ساطع الحصرى .. وهو ذلك المنطلق اللاعرقى الذى يبدأ منه مناقشة القضية القومية وتعريفه للأمة . فهو ينفى وحدة العرق والأصل نفيا قاطعا « لأن جميع الأبحاث العلمية المستمدة من حقائق التاريخ ومكتشفات علم الانسان

لا تترك مجالا للشك فى أنه لا توجد على وجه البسيطة أمة تنحدر من أصل واحد » . **وهو يؤمن ان كل امــة انما تكونت من تمازج وتداخل عشرات الأقــــوام . ومن ثم « لا توجد على الأرض أمة خالصة الدم . ولذا فان وحدة الأصل « يجب ان تخرج من كل تعريف للأمة »** .

هكــذا يرفض المصرى أن تكون « القرابه الجسمانية المادية » التى تنشأ من وحدة الأصل أساسا لتكوين الأمة والقومية . ولكنه يدعو ـ عندئذ ـ الى ما يسمى ب « القرابة النفسانية المعنوية » التى تصدر عن وحدة اللغة والتاريخ كأساس لتكوين الأمة والقومية .

ومن ثم فان الأمة عنده تبقى حية بحياة لغتها ، وتفنى بفناء لغتها . ولذا فان « اللغة هى روح الأمة وحياتها . انها بمثابة محور القومية وعمودها الفقرى » .

تلك هى الفكرة الجوهرية التى ترتكز عليها النظرية القومية عند ساطع الحصرى ، وهى فكرة : معادلة اللغة مع الأمة والقومية . فلا وجود للقومية ، أى قومية ، الا بوجود اللغة . والعكس صحيح . عندما تتحلل اللغة وتندثر ، لأى سبب من الأسباب ، تتحلل القوميـــة ، وبندثر كيان الأمة .

ذلك أن الوجود القومى عند ساطع الحصرى هو ، فى المحل الأول ، « وجود معنوى » متميز : اللغة جوهره ، وسر تميزه ، ومبعث تفرده . لأنه حيث تتعدد اللغات كان طبيعيا أن تتعدد القوميات ، وأن يكون لكل قومية كيان معنوى متميز .

وهكذا يسقط الحصرى من منظوره القومى المعنوى **كل ما هو مادى ، سواء كان هذا « المادى » هو الاقتصاد أو الأرض المشتركة أو الدولة** . ذلك أن الأمة عنده لها **جوهر معنوى خالص هو اللغـــة** . ومن ثم فالأمة ، فى منظوره اللامادى هذا ، فوق التاريخ كعلم موضوعى ، وفوق الاقتصاد والنظم السياسية والاجتماعية ، وفوق الدولة .

وحتى تتعمق نظرية الكيان المعنوى للأمة يلح الحصرى على ضرورة فصل مفهوم الأمة عن مفهوم الدولة فصلا تاما . ويبرر مقتضيات هذا الفصل بقوله : **« ان كل أمة تنزع الى تكوين دولة خاصة بها . الا أنها تكون موجودة قبل أن تتوصل الى تكوين الدولة ، كما أنها تبقى « أمة » ذات كيان خاص ، ولو فقدت الدولة الخاصة بها ، وتكون « أمة واحـــــدة » ، ولو تعـــــددت الدول التى ترعى شئونها »** .

ومن ثم فالأمة شىء ، والدولة شىء آخر . الأمة تعنى الكيان المعنوى الخالص ، أما الدولة فتمثل الكيان المادى للمجتمع من اقتصاد ونظم سياسية واجتماعية . ولذا يسقطها الحصرى من منظوره المعنوى للأمة .

وتأسيسا على ذلك ، فعندما تسقط الدولة فى قبضة الاستعمار مثلا ، فلا يعنى هذا سقوط الأمة ، لأن الأمة لا تسقط الا بسقوط اللغة . وهكذا تبقى الأمة حيــــة بحياة لغتها رغم سيطرة القوى الامبريالية على الأرض والدولة والاقتصاد ، بل وعلى التعليم والثقافة كذلك . ومن هنـــا ، فان الأمة المستعمرة اذا فقــــدت حريتها واستقلالها ، فانها لا تفقد « حياتها » ما دامت محافظة على لغتها . ولذا تبقى مستعدة ـ كما يقول الحصرى ـ للحرية والاستقلال . أما اذا فقدت الأمة المستعمرة لغتها فتكون قد « ماتت » بكل معنى الكلمة .

وحــــدة التاريخ

واستكمالا لتحديد نظريته عن الأمة ذات الكيان المعنوى الخالص ، يسقط ساطع الحصرى من تعريفه للأمة : « الأرض المشتركة والحياة الاقتصادية المشتركة » كعاملين من عوامل تكوين الأمة والقومية . اذ أن الحصرى كان ينظر دائما الى هذين العاملين السالفين من خلال وضع « تجزئة الأمة العربية » . **ولذا فان التسليم بوجوب اعتبار الأرض المشتركة من مقومات الأمة الأساسية يعنى عنده انكار وجود « الأمة العربية » .. كما يترتب عليه اضفاء صفة « الأمة » على أهالى كل دولة من الدول العربية على حدة . وهى نظرية يحبذها دعاة الاقليمية ، وينكرها دعاة الوحدة** وعلى رأسهم **ساطع الحصرى** .

وبنفس المنطق ، ينفى ساطع الحصرى عامل « الحياة الاقتصادية المشتركة » . ذلك أن الأمة الواحدة عنـــدما تتجزأ ، على نحو ما تجزأت الأمة العربيـــة ، تفقد على الفور حياتها الاقتصادية المشتركة . فكيف نقول « انهـــا فقدت صفة « الأمة » ما دامت قد حرمت من الحيـــاة الاقتصــــادية المشتركة » ! . ولذا يرفض الحصرى أن يرتبط وجود الأمة بالحياة الاقتصادية المشتركة .

وهكذا .. فان الأمة ، عند الحصرى ، فوق كل ما هو مادى . انها كيان معنوى خالص .. لا يستمد وجـــوده الا من ينبوع واحد أصيل سرمدى هو : ينبوع اللغة ، فاذا ما جف هذا الينبوع ، ونضب معينه .. عندئذ ، وعندئذ فقط ينضب معين الأمة ، ويجف كيانها ويتحلل .. وتسقط فى هوة العدم .

اللغة هى الأمة ، هى روح الأمة وحياتها ، ومحور القومية وعمودها الفقرى .

بيد أن الأمة عند الحصرى لابد لها من ذكريات خاصة بهـــا تكون شخصيتها . وهنا تدخل **« وحدة التاريخ »** لتشكل العــــامل الثانى ـ بعد اللغـــة ـ فى تكوين الأمة والقومية .

ان « التاريخ » هنا ـ وحتى يتناسق مع الكيان المعنوى للأمة عند الحصرى ـ ليس ذلك العلم الموضـــوعى الذى يســـجل حركة التطور الانسانى والحضارى فى أبعادها الفكرية والمـــادية ، وانما المقصود به ، هنا ، وعلى وجه التحــــديد : الذكريات التاريخية والعادات والتقاليد المشتركة . أو على حد تعبير المفكر العربى : « التاريخ الحى فى النفوس ، الشــــائع فى الأذهان ، المستولى على

التقاليد » ، ذلك التاريخ الذى يخلق نوعا من « **القرابة المعنوية** » أشد تأثيرا من القرابة المادية بدرجات .

ومن ثم فان هذا « التاريخ » هو بمثابة « شعور الأمة وذاكرتها » . ولذا فان الأمة التى تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها ، وأصبحت فى حالة السبات ، وان لم تفقد الحياة . وتستطيع هذه الأمة أن تستعيد وعيها وشعورها بالعودة الى ذكريات تاريخها القومى .

وهنا يرى الحصرى ضرورة أن يكون التاريخ « قوة دافعة » تحرك البشر الى الأمام ، لا « قوة جاذبة » تدفعهم الى الخلف . ولذا فالماضى لا يجب أن يكون « هدفا يتوجه اليه الناس » ، وانما هو « مجرد » نقطة انطلاق نحو المستقبل الجديد . ومن ثم « يجب علينا أن نستمد من التاريخ قوة معنوية تثير فى نفوسنا نزعات التقدم الى الأمام » .

وهكذا ، وبهذا التفسير لوظيفة التاريخ والماضى يفلت الحصرى من السقوط فى لجة السلفية .

— ان اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير فى تكوين القوميات والأمم .

الوجود والماهية .. والثورة

لقد رأينا أن النظرية القومية ، عند ساطع الحصرى ، هى نظرية معنوية خالصة تعتمد اللغة والتاريخ عاملين أساسيين لها . ومن ثم فان الحصرى يسقط من منظوره وجود أى علاقة عضوية بين الكيان المعنوى للأمة والكيان المادى للمجتمع .

ولذا ، فان الحصرى ، وان لم تنطو نظريته القومية على ادراك واضح لقضية الوجود والماهية ، الا ان نظريته المعنوية هذه تعد من أبرز النظريات التى تنظر للوجود القومى « فى ذاته » ، طارحة مسألة ماهيته جانبا . اذ أن ما يعنى الحصرى هو الوجود القومى « فى ذاته » أما ماهيته فلتكن ما تكون .. شريطة أن يظل الوجود « قومى الماهية » — أن صح هذا التعبير — بمعنى أن لا تجرفه النزعات الأممية .

ويبلور الحصرى هذا المعنى فى تلك العبارة :

— « أنا لا أخالف من يدعو الى الاشتراكية ، حتى أننى لا أعارض من يقول بالشيوعية ، غير أننى أطلب الى هؤلاء أن لا يمزجوا دعوتهم هذه بالفكرة الأممية ، وأن لا يجعلوا حركتهم معادية للنزعة الوطنية » .

هذا هو ساطع الحصرى مفكرا قوميا خالصا ، لا يعنيه الا الوجود القومى فى ذاته ، أما قضية ماهيته فما هى بقضيته ، ولا هى ضمن محاور اهتماماته الأصيلة .

وهنا يمكن القول ، من خلال منظور الثورة العربية المعاصرة ، أن ساطع الحصرى هو مفكر القومية العربية . ولكنه ليس مفكر الثورة العربية .

صحيح أن هناك تلازما بين القومية العربية والثورة العربية . بيد أن مفهوم الثورة العربية يشمل قضيتى الوجود القومى (نظرية الحصرى) والماهية نظرا لأنه ينطوى على نظرة « كلية » للواقع العربى المعاصر الذى يتمثل أساسا فى : التخلف والتجزئة . أما القومية عند الحصرى فتنطوى على نظرة « أحادية » للواقع العربى : واقع التجزئة . ومن هنا كان اهتمام الحصرى « بالوجود القومى » فى ذاته فحسب .

ولقد كشفت أحداث الثورة العربية المعاصرة على أن وقف التفكير عند حدود التنظير للوجود القومى فى ذاته — كما فعل الحصرى — كان بمثابة الثغرة الموضوعية التى نفذت منها القوى الرجعية العربية لتمزيق الوجود القومى ذاته .

وتفسير ذلك : انه عندما بدأت القومية العربية تأخذ ماهيتها الاجتماعية الثورية المتمثلة فى «الاشتراكية» .. عندئذ انقضت الرجعية العربية على الوحدة — قضية العرب المقدسة — فمزقتها فى حادث الانفصال الرجعى المعروف . حدث ذلك عندما تعارضت مصالح الرجعية العربية مع الوحدة الثورية الجماهيرية « **ذات الماهية الاشتراكية** » .

عندئذ سجل تاريخ الفكر القومى العربى لساطع الحصرى اقترابه ، لأول مرة ، من مفهوم الصراع الاجتماعى فى الأمة العربية . وذلك عندما أبرز فى كتابه « **الاقليمية .. جذورها وبذورها** » ١٩٦٣ أن السبب الرئيسى فى حادث الانفصال الرجعى هو « صدور قوانين التأميم » ، وما نجم عن ذلك من « احتلال مصالح الرأسماليين » .

وهكذا طرح حادث الانفصال الرجعى معطيات فكرية ونضالية جديدة . فقد بدا واضحا أن معركة الأمة العربية ليست صراعا قوميا فحسب ، وانما هى صراع اجتماعى كذلك . ويتبلور هذا الصراع موضوعيا فى تيارين ايديولوجيين مختلفين : ففى حين تريد الرجعية العربية تحديد الوحدة داخل حدود محتوى رأسمالى ، فان الجماهير العربية تحدد « الاشتراكية » مضمونا للوحدة العربية . بل ان الاشتراكية — عند الجماهير — هى التصور الوحيد الممكن للوحدة العربية .

ومن ثم كان لزاما على القوى الثورية العربية أن تخوض مسيرتها النضالية رافعة شعار جماهير الثورة العربية :

— وحدة سياسية ذات مضمون اشتراكى .

وتحدد هذه الصيغة الفكرية الجديدة للثورة العربية المعاصرة الحل العلمى والثورى لقضيتى الأمة العربية : فلئن كانت **الاشتراكية** هى الرد الثورى على واقع التخلف والأنظمة الرجعية ، فان الوحدة هى الرد الثورى على واقع التجزئة والنزعات الاقليمية التى تغذيها الرأسمالية الاقليمية والاستعمار .

محمد عيسى